



يا رجال الدعوة.... الثبات

الثبات في مواقف المواجهة، والثبات على المبدأ وعدم التغيير أو التفريط أو النكوص من الأخلاق اللازمة في ميدان الدعوة والإصلاح والجهاد والثورة على الظلم ومقاومة الطغيان والاستبداد، وفي تعريف الثبات يقول الإمام البنا رحمه الله:

“وأريد بالثبات أن يظل الأخ عاملاً مجاهداً في سبيل غايته مهما بعدت المدة وتطاولت السنوات والأعوام، حتى يلقي الله على ذلك وقد فاز بإحدى الحسنين ، فإما الغاية وإما الشهادة في النهاية”... (حسن البنا، مجموعة الرسائل)

“فالمنتصر في الحياة هو الثابت علي الإيمان، والمنتصر في دعوته هو الثابت علي فكرته، والمنتصر في تحمل التضحيات هو الثابت علي منهجه، والمنتصر في مواجهة التحديات والمؤامرات هو الثابت علي الفهم، فالمنتصر الحقيقي هو الثابت علي الإسلام إيماناً ودعوة ومنهجاً وفكرة وفهماً، ولذلك فالثبات هو حياة المنتصرين، والمنتصرون هم الثابتون، وهذا سر انتصار أصحاب الحق” (جمعة أمين، الثبات والدعاة).

وقد نشر الإمام البنا في 5 رمضان سنة 1349هـ الموافق 2 يناير سنة 1931م :

“من مبادئ الإخوان المسلمين: سلامة الاعتقاد والاجتهاد في طاعة الله تبارك وتعالى وفق الكتاب والسنة. - الحب في الله والاعتصام بالوحدة الإسلامية، والتأدب بأداب الإسلام الحنيف، وتربية النفس والترقي بها إلى معرفة الله تعالى وإيثار الآخرة على الدنيا، والثبات على المبدأ والوفاء بالعهد مع اعتقاد أن أقدس المبادئ هو الدين” (حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية).

بل إن الإمام البنا جعل الثبات والتضحية من الوسائل الخلقية اللازمة لكي يحقق حلمه الذي خطه في موضوع التعبير الذي كان عنوانه:

“أشرف أعظم آمالك بعد إتمام دراستك، وبين الوسائل التي تعدها لتحقيقها. فكتب الإمام البنا:

“خاص وهو إسعاد أسرتي وقرابتي .وعام: وهو أن أكون مرشداً معلماً، إذا قضيت في تعليم الأبناء سحابة النهار، قضيت ليلي في تعليم الآباء هدف دينهم ومناجع سعادتهم.. تارة بالخطابة والمحاورة، وأخري بالتأليف والكتابة والثالثة بالتجول والسياسة. وقد أعددت لتحقيق الأول: معرفة بالجميل. ولتحقيق الثاني، من الوسائل الخلقية: الثبات والتضحية وهما ألزم للمصلح من ظله، وسر نجاحه كله. ومن الوسائل العملية: درساً طويلاً، سأحاول أن تشهد لي به الأوراق الرسمية، وتعرفاً بالذين يعتقدون هذا المبدأ، أو يعطفون علي أهله، وجسماً تعودّ الخشونة علي ضآلته، وألف المشقة علي نحافته، ونفساً بعتها لله صفقة رابحة، راجياً منه قبولها، سائله إتمامها. ذلك عهد بيني وبين ربي، أسجله علي نفسي، وأشهد عليه أستاذي في وحدة لا يؤثر فيها إلا الضمير” (حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية).

والثبات عند الملمات من عوامل النصر.

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأنفال: 45) “فهذه هي عوامل النصر الحقيقية : الثبات عند لقاء العدو. والاتصال بالله بالذكر؛ فأما الثبات فهو بدء الطريق إلى النصر. فأثبت الفريقين أغلبهما.... وما يُدري الذين آمنوا أن عدوهم يعاني أشد مما يعانون؛ وأنه يألم كما يألمون، ولكنه لا يرجو من الله ما يرجون؛

فلا مدد له من رجاء في الله يثبت أقدامه وقلبه! وأنهم لو ثبتوا لحظة أخرى فسينخذل عدوهم وينهار؛ وما الذي يزلزل أقدام الذين آمنوا وهم واثقون من إحدى الحسينيين:
الشهادة أو النصر؟

بينما عدوهم لا يريد إلا الحياة الدنيا؛ وهو حريص على هذه الحياة التي لا أمل له وراءها ولا حياة له بعدها، ولا حياة له سواها” (في ظلال القرآن، بتصرف).

ويقول تعقيباً على قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: 243): “موضع العبرة أن الفرع والجزع والخروج والحذر، لم تغير مصيرهم، ولم تدفع عنهم الموت، ولم ترد عنهم قضاء الله. وكان الثبات والصبر والتجمل أولى لو رجعوا لله” (في ظلال القرآن، بتصرف).

وهذا الخلق لازم لكل من رفع راية الجهاد والثورة ضد الظلم، وهو أمر صعب يتطلب طاقة عظيمة وعملاً دائماً: “فمحاولة الثبات على المرتقى العالي الذي يتطلبه الإيمان، وتكاليف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصيانة حياة الجماعة من الفساد والانحراف، وتكالييفها في الجهاد لحمايتها ونصرتها وعزتها، والسهر عليها من كيد الأعداء هي تكاليف لا تنتهي، ولا يغفل عنها المؤمن، ولا يعفي نفسه منها، وهي مفروضة عليه فرض عين أو فرض كفاية.

وهي كافية لاستغراق الجهد البشري والعمر البشري. والطاقة البشرية محدودة. وهي إما أن تتفق في هذا الذي يصلح الحياة وينميها ويرقيها؛ وإما أن تتفق في الهذر واللغو واللغو. والمؤمن مدفوع بحكم عقيدته إلى إنفاقها في البناء والتعمير والإصلاح” (في ظلال القرآن، بتصرف)
فثبتت الحق شيء غير معرفته، غير الاقتناع به، غير الثبات عليه، غير الدعوة إليه، غير الدفاع عنه.

لقد رأينا في تجاربنا مع الأيام أن الحق غريب مستوحش، فقد نحسب خدمة الحق لا تعدو تقريره، وكشف النقاب عنه. وهذا خطأ ضخم، فإن تثبيت الحق كإحياء جسم ما، أو إدارة آلة ما، لا بد له من جهود دائبة مضطردة، وإلا أذابه الباطل، وجرفه في تياره” (محمد الغزالي، الاستعمار أطماع وأحقاد).

“يجب أن يظل المسلم موفور الثقة بآدى الثبات، لا يرتاع لغيمة تظهر في الأفق ولو تبعتها أخرى وأخرى، بل يبقى موقناً بأن بوادر الصفو لابد آتية، وأن من الحكمة ارتقابها في سكون ويقين .

وقد أكد الله أن ابتلاء الناس لا محيص عنه، حتى يأخذوا أهبتهم للنوازل المتوقعة، فلا تذهلهم المفاجآت ويضرعوا لها. ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾. وذلك على حد قول الشاعر: عرفنا الليالي قبل ما نزلت بنا فلما دهتنا لم تزدنا بها علماً” (محمد الغزالي خلق المسلم).

وقد حفل القرآن الكريم بنماذج الثبات والصمود مثل سحرة فرعون واصحاب الأخدود وغيرهم “وما أروع أن نشهد ذلك النموذج الخالد من الثبات والصبر، والاستمسك بعروة الحق، والاستهانة بكل شيء حتى الحياة في سبيل الإيمان والعقيدة من أتباع موسى عليه السلام الذين آمنوا بدعوته، وقد تحذوا فرعون الجبار في استهانة واستماتة: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه: 72-73) (حسن البناء، مجموعة الرسائل).

وفي سيرة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم نماذج لا تحصى للثبات؛ ويكفي الإشارة إلى موقفهم في أحد وحمراء الأسد بعدها “فالهزيمة في معركة أحد كشفت عن معادن بالغة النفاسة؛ فهناك رجال ركلو الدنيا بنعالهم ومضوا إلى الله لا يلوون على شيء، وهناك رجال ثبتوا في مواقف ميئوس منها لا يحلمهم على الثبات إلا الوفاء إلى آخر رمق، وهناك نساء انطلقن إلى معارك ملؤها البطولة والفداء يتقاعس عنها الواهون، وتطير إليها أولئك المؤمنات الصامدات، وهناك من رزق الشهادة وهو لاغب يحمل أعباء الكفاح برجولة رائعة لا تعنيه إلا نصرته الله ورسوله. وهناك وهناك. إنها معركة حفرت ذكرياتها في ضمائر المؤمنين فما تنسى أبداً.. وبقي ذكر أحد في قلب رسولنا صلى الله عليه وسلم إلى آخر عمره” (محمد الغزالي، نحو تفسير موضوعي).

وتاريخ الإسلام كذلك "خطه نفر من المتوكلين على الله، ما هالتهم قوى الباطل المسيطر شرقا وغربا، لقد نازلوه باقتدار مطمئنين إلى وعد الله بالفوز: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الملك: 29). وعلى المسلمين المعاصرين، أو على النثة من الآخرين، أن يثبتوا في مواقعهم تجاه الغارات التي تريد إبادة الإيمان. ومع هذا الثبات المتوكل على الله، سيميل ميزان القوة ضد أعداء الله، ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ (محمد الغزالي، المحاور الخمسة للقرآن الكريم).

"ولقد حذر القرآن الكريم من الإذعان لضغوط الأهل آباء وأبناء، وحض على الثبات والصمود والجهد في سبيل الله فقال تعالى ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة 24) "﴿فتحى يكن، المتساقطون على طريق الدعوة﴾. وقد اهتم الإمام البنا رحمه الله بالتربية العملية علي الثبات والتضحية. يقول عنه الأستاذ عمر التلمساني رحمه الله: "كان لا يعلمنا ذلك في مكتبته أو محاضراته أو نظريا أو فلسفيا ولكن يعلمنا الثبات والتثبت والصمود عمليا في تنقلاتنا معه في القرى والداكر والكفور.

أقدامنا تغوص في الرمل والزلط والأرض الرطبة ومناديلنا تكاد تعصر من العرق الذي نجفقه من طول ما نمشى . كنا نبئت مع الاخوان على الحصر في المساجد أو في الأجران إن تعثر المبيت في المسجد أو المضيفة . الأكل أقله وأخشنه. كان الوفاء بالبيعة يلزمننا بالنزول عند رغبة من بايعناه في غير معصية" (عمر التلمساني، ذكريات لا مذكرات).

وكذلك كانت سير المرشدين وأقوالهم فهذا الأستاذ مصطفى مشهور رحمه الله يقول: "تريد الأخ المسلم القدوة الذي يضرب المثل في الثبات علي طريق الدعوة، فيواصل سيره في اطمئنان وثقة ويقين بنصر الله مهما بعدت المدة وتطاولت السنون، ومهما تعرض للمحن والإيذاء والمحن هو النصر في تلك المرحلة، وأن الضعف والتخلي هو الهزيمة .

وليعلم أن النصر مع الصبر وأن مع العسر يسرا. فليصبر وليثبت ويسأل الله الصبر والثبات والنصر وليعلم أن الوقت جزء من العلاج وأنه يقاس بعمر الدعوات والأهم وليس بأعمار الأفراد .

ويعين علي الثبات أن يعلم الأخ أن طريقنا - وإن كانت طويلة المدى بعيدة المراحل كثيرة العقبات - هي وحدها التي تؤدي إلي المقصود مع عظيم الأجر وجميل المثوبة" (مصطفى مشهور، القدوة على طريق الدعوة).

ويقول أيضاً: "وقد خبرنا طريق الدعوة وأثناء المحن والفتن قعد البعض أمام بعض العقبات كما انحرف البعض عن الطريق ولكن كان الثبات أمراً هاماً وخاصة أثناء المحن وعند الجهاد وملاقة الأعداء، وفي قصة طالوت وجالوت خير مثال لتخطي العقبات وضرورة الثبات ومواصلة السير وعند مواجهة العدو سألو الله الصبر والثبات ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزمهم بإذن الله﴾ (البقرة: 250)" (مصطفى مشهور، مقومات رجل العقيدة).

ويقول: "ومما يعين علي الثبات المقارنة بين عذاب الله وفتنة الناس فنجد الفارق كبيراً جداً فتحمل فتنة الناس نجاه من عذاب الله ولا نجعل فتنة الناس كعذاب الله قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت: 10)" (مصطفى مشهور، طريق الدعوة بين الأصالة والانحراف).

وهذا الأستاذ محمد مهدي عاكف فك الله أسره يقول: "على الثبات، والتضحية، واليقين، والرجولة تقوم عزة الدعوة، وتنتصر، وتسود، أما لو طلب كل مسلم السلامة لنفسه، ولم يبادل خصوم الدعوة نزلاً بنزال، لخلا الميدان للطغاة الظالمين يصلون فيه ويجولون، لا رادع، ولا مناضل، ولا مُنكر، ولا حسيب. إن طلب السلامة في مواقف الرُوع، إن لم يُقَدِّرْها صاحب الملك والملكوت، رب العزة والجبروت، لن يحصل عليها طالبا، حتى ولو تَمَرَّغ في قذارة المداينة والنفاق" (محمد مهدي عاكف، رسالة الهجرة المباركة إعداد وجهاد)

ويقول: "إن منحى الحضارة الغربية في هبوط بعد أن وصل إلى قمة الإنجازات، ومنحى البناء الحضاري الإسلامي في صعود بعد أن نجح في الثبات والمقاومة، ولن نياس أبداً، فليس اليأس من أخلاق الرجال" (رسالة بين الحاضر والمستقبل)

ويقول أيضاً: “أيها الإخوان . أيها المرابطون في فلسطين .. أيها المحاصرون في غزة والخليل: لكل مرحلة نصر، وعندما يشتد الظلم ويتصاعد الحصار الظالم، ويستقوي العدو بأبناء جلدتنا على المقاومين والمجاهدين، ويصبح ظلم ذوي القربى أشدّ مرارةً على النفس؛ فإن نصر المرحلة هو الثبات على المبدأ، وعدم التنازل عن الحقوق، والإعداد والاستعداد لمراحل قادمة، أن ننتصر على ضعف نفوسنا وخور عزائنا، ووساوس الشياطين، وجدال المنافقين”(رسالة ثبات حتى النصر).

وهذا الدكتور محمد بديع فك الله أسره يقول: “من الصبر الجميل تحمل كل المشقات من أجل تحقيق نهضة أمتنا؛ حيث إن طريق البناء شاق، ومليء بالتحديات، وطبيعته الابتلاءات؛ ما يستلزم الثبات على المبادئ، والالتزام بالمنهج واليقين في وعد الله للصابرين ووعيده للظالمين المستبدين”(محمد بديع، رسالة النصر مع الصبر).

اللهم نسالك الثبات على الأمر والعزيمة على الرشد